

نخب اكتمال القمر

ابتهال سالم

نخب اكتمال القمر

S ƥNĪĚ

الترحيلة

تكورت فى ركن الرصيف ، يلفها البرد والانكسار، تحت إبطها لفة صغيرة .

جندى الدورية يرمقها مرتاباً، سارينة قوية تقترب، دارت عيناها فى كل اتجاه.

الفجر لم يبزغ بعد، صفير الريح فى قلبها ينذر بالخطر، وصلت العربة القاتمة ، يعلو جانبها كورات سلكية صغيرة ، تتحرك خلفها ظلال غير محددة ، على سلمها الخلفى يقف جنديان ، شاحبى الوجه، نظراتهما سقيمة .

« طرقات خفيفة على باب المنزل. اتكأحزنها على قلبها ، احاطت كتفيها بشال قديم ، ورابت الباب، ضاقت حدقتا عينيها، إنه فى مثل عمره تقريباً ، تقدمت نحوه، فاردة ذراعيها، داهمها الفراغ ورائحة القمامة العطنة »

تحوم الجنود حول العربة ، اندفعت فى اتجاهها ، أزاحتها كف غشيمة، سقطت اللفة الصغيرة، دهستها الأحذية الغليظة

- ممنوع الوقوف هنا ياست ، ابعدى بعيد .... رجعت بظهرها ، عيناها مصوبتان على الباب الخلفى للعربة توالى النازلون، حليقو الرأس، وجوههم مختومة بخربشات الزمن ، ملابسهم مطبوعة

بالأسفلت ، أطولهم لم يتعد الثالثة عشرة، ربما أقل ، متبدلة البراءة فى عيونهم بالغل ، أقدامهم الحافية متضخمة ذات تشققات ، أياديهم مربوطة بسلاسل حديدية موصولة بينهم ، يتبعهم رجل قصيرة القامة، مكتنز الوجه ، متبلد العينين ذو شارب كثيف يغطى فمه، يرتدى معطفاً كالحاً فوق جلباب، يده قابضة على عصا جريد يلسع بها ظهورهم ، فتتدلى رؤوسهم فوق صدورهم وكلما اقترب الضابط ازداد سُعار الضرب .

مات الكلام فى حلقها ، حاولت بعينيها المجهدتين التمييز، حدثها قلبها بمكانه، رفع رأسه خلسة ، ازداد طولاً ونحالة، لم يتبق منه غير فك بارز وعينين غائرتين تنطقان قسوة وترمشان خوفاً .

لم يسمح الجنود لأحد بالمرور، انتظرت على مقربة من باب المحطة حتى دخل آخر جندى .

مرقت سريعا إلى الداخل، جرت على أقرب شباك سألت عن قطار الترحيلة، أشار أحدهم إلى قطار بعيد ، العربتان الأماميتان منه للترحيلة والباقى ركاب.

سابقت نبضات قلبها رنات نعليها

«النوافذ الزرقاء تضيق الرؤية، اليد الضخمة للطبيب تحاول شد الجنين الذى يزداد التصاقا بدنياه الصغيرة . فى بطن أمه ، مختبئا من طلقات الرصاص والخبز اليابس وفراش أمه البارد، كأنه يعرف أن أباه قد رحل بعيداً ولن يعود وأن ميلاده حرب ».

الصبية مقرفصون على رصيف المحطة ، متدلية أياديهم المتسلسة بين الركبتين ، عيونهم فى الأرض.

اشتمت رائحته ، اقتربت ، حاول الجندى منعها ، لم تتزحزح من مكانها، دفعها بغلظة ، صرخت :

- ابعد إيدك يا ....

حضر الضابط على صياحها ، نظر إلى وجهها المغلول وعينيها الجريحتين، أدار وجهه عنها ، صائحا:

- سيبها يا عسكرى... تسمر الجندى، أدى التحية بيد مهزوزة.

- أمرك يافندم

عاود الضابط النظر إليها

- ابنك؟

أومأت برأسها وعيناها ترحلان مع صفير القطار ، صاح فى الجنود

- انتباه

اصطف الجنود ، وقف الصبية، هوى القصير بالعصا الجريد عليهم حتى انتظموا متسلسلين أمام سلم القطار ، طرف الصبى بعينه نحوها، كانت الدمعة المعلقة فى عينيه تبوح بالكلام المحبوس والعتاب والخزى .

دقت ساعة المحطة ، بدأت العجلات فى الدوران البطىء ، علا صفير القطار ، اندفعت نحو عربة الترحيلة ، منعها الجنود من

الصعود ، صرخت ، رد أحدهم:

- تقدرى تحصليه هناك .

صرير العجلات يعلو، جرت بكل عزمها، لحقت آخر عربة فى القطار ، شدها أحد الركاب بقبضة قوية إلى الداخل ، تنقلت بين الجالسين علها تجد مكاناً، وقفت ترقب الأرض عبر النافذة، تسابق عيناها القضبان والأزمنة الجريحة وقلبها ينسلخ عنها بعيداً / قريباً من عربة الترحيلة .

القاهرة ١٩٩٤

زهرة الشتاء

ويرحل الخريف الجميل وتتجمع الدمعة فى ركن العين، ولا أنتبه إلا وهى تتقاطر على وجنتى مع بداية الغيم.

آه ... ياشتاء العمر .

هكذا .. أظل أغمغم، وأنا واقفة فى الشرفة ، أتأمل السحب الداكنة وأسال صاحبى:

- هل سيمر شتاء هذا العام؟

وحين لم يأتنى غير صمته، اقتربت منه، متحسسه سترته الصوف.

انتبه، أغلق باب الشرفة ، طوقنى بذراعه، دفست رأسى داخل سترته، متشممة رائحته الأليفة داعب شعرى .

- ندخل أفضل

ونمضى متلاصقين، تضحك عيناه، يحمر أنفى وأذناى كالعادة . يقرصنى فى خصرى ، انتفض نشوة، يسبقنى قلبى الطفل، يقفز على الفراش، يلحق - بى - نقفز سوياً، تتدلى البطانية ، تتبعثر الملاءة ، تتوهج اللحظة ،

نتشرب عرقنا العسلى ، ينطفىء الخوف. استلقى على ظهرى، فاردة ذراعىَ ، أتنفس زهرة الشتاء الدافئه فى عينيه الواعدتين .

القاهرة ١٩٩٦

نخب اكتمال القمر

- قلت لعمى فى البلد ، عاوز تربة أربعة متر فى أربعة ، يتنزل لها بسلالم ومخدة أسند عليها دماغى .

ابتلع آخر رشفة شاى، هز سبابته:

- عاوزك لما تزورينى ، تجيبى معاكى محشى ورق عنب، صنع ايديكى، فاهمة.

أومأت برأسها مبتسمة .

علق ثالثهما:

-أيوة ياعم ، عشان تاخد راحتك على الآخر . رجع بظهر مقعده:

- تقول فيها، طب دانا حازوقها بالطوب الأحمر ، تصدقوا التربى ما رضيش يحفر، بيقول ان داكلام غير شرعى.

فرك صاحبهما شعر رأسه:

-لوقفلتها كلها تتعب، افتح لك شباك والإتبقى صهد وتخلى حياتك نار.

هز رأسه:

- مانا كده ولاكده داخل النار ، تفرق إيه؟؟

نظرت إلى وجهه الطفولى وعينيه الغائرتين خلف النظارة والسيجارة العاشرة التى يدخنها.

وقفت فجأة:

- عن إذنكم ،رايحة الحمام.

تركتهما في جلستهما، ووحدها خلف الباب غالبها البكاء .هى تعلم أن الطبيب حذرة من السهر والانفعال والسجائر وهو يعلم جيداً أن قلبه لن يتحمل جراحة أخرى.

كان يقول لها وهو يمارس الممنوعات :

- إن الله يغفر الذنوب جميعاً

ويهمس فى أذنيها:

- إنه يحب الحياة قدر حبها للبحر.

كانت قهقهاتهما تصلها بعد خروجها من الحمام.

اقتربت من المنضدة، كان القمر بدراً، وضعت راحتها على كتفه. هبت نسمة عطرة من الشجيرات المحاطة فى ركن الحديقة استدار برأسه نحوها، ابتسمت عيناه الصافيتين:

- شوف ياخويا، البت حلوة ازاى ، لأوجمالها مصرى.

مستها رعشه خفيفة فى قلبها، جلست على المقعد الملاصق له، تأملها لحظات:

- تعرفى انك تشبهى بنتى

قاطعه صاحبهما

- عندك بنت وتخبيها عنى.

نفخ ساخراً

- دى عمرها عشر سنين ، يعنى انت تبقى جدها ولامؤاخذة

ياراجل اختشى.

ترك يدها، رفع رأسه لأعلى حيث السماء مفتوحةفى ليلة قمرية

تجمعت المياه المالحة فى عينيه.

- تعرفوا، يوم مامات صاحبى اللى كان بينادى بمساواة المرأة بالرجل فى الميراث ووقف عملية الختان رسمت بنتى الأهرامات باللون الأسود والشمس بلون الدم والبحر من غير موجة.

بح صوته.

- أصلها كانت بتحبه قوى ودايما كان يحكى لهاحكايات . أطبق السكون على جلستهم السامرة.

سارع كعادته بفضه:

- إيه رأيكم نسهر للصبح ونشرب نخب اكتمال القمر.

اندفع صاحبهما وصلعته تلمع تحت الضياء.

- ياشيخ روح، انت فيك نفس.

خبط ببطن كفه على جبينه، نظر إلى ساعته:

- فكرتنى بميعاد الدكتور

تحركت فى مقعدها،صاحت مندفعة

- أروح معاك

هدأها بعينيه الحانيتين

-صدقينى، المسألة مش مستاهلة ، يدوب يدخل حتة حديدة فى بطنى ويقيس الضغط ويطلب تحليل وأشعة، ياشيخة بلا وجع دماغ.

أطالت النظر إلى الشجيرات المتحركة فى ركن الحديقة

قطع ثالثهما شرودها أثناء إشعال صاحبها سيجارة جديدة:

- ياجدع ارحم نفسك ، قلبك مريض.

عابثه:

- اسكت ياراجل ياعجوز.

تنقلت ببصرها بينهما ، ابتسمت:

- القلب المريض ميعرفش الحب، حانسهر وندردش ونضحك ونشرب نخب اكتمال القمر.

القاهرة ١٩٩٦

ترقب

واربت النافذة ، صدتها البيوت الزجاجية والليل الخانق، قطرات ملح تبلل شفتيهاو تغوص حتى القلب الذى ناء بالبرودة والانتظار.

شعاع الفنار يمر كالبرق، نباح الكلاب ، يخترق عتمة الشارع وعيناها الموار بتان خلف النافذة ترقبان صرير عجلة لايعرفه أحد غيرها ، يأتى مع آخر معدية.

الكشك الوحيدعلى الناصية أغلق أبوابه والريح تدحرج العلب الفارغة والقطط تعبث فى قمامة الشارع.

تفرقت النسوة اللائى يلتصقن بأعمدة النور الصدئة، دورية الشرطة تقتحم الصمت، يهتف الجندى :

– مين هناك؟

تَنَهَدتْ: ليس هناك أحد غيرى والليل والصمت. أبواق البواخر ترحل إلى البلاد الغريبة، وميض المعدية يبزغ من قلب الندى وصرير العجلة الذى لايعرفه أحد غيرها يأتى من بعيد ، بعيد ، يخدش أسفلت الشارع ، يقترب، يدهس وجهها المطفأ مع أول طرقة على الباب.

القاهرة ١٩٩٤

فبراير

مسها البحر ، فلم تهدأ.

خلعت فردتى الحذاء ، وضعتهما تحت إبطها ، رائحة اليود تغمرها، صفير الموج ينفذ داخل روحها المتأججة، شعرها المحلول يرحل إلى أشرعة المراكب البعيدة والريح تعبث بثوبها ، ترفعه لتستكين تحته.

الأصداف والقواقع المنثورة على الرمال تطقطق تحت قدميها الحافيتين .

- دوما لاتسمعين الكلام، خذى.

رشقت مقياس الحرارة فى فمها

- تنزلين البحر فى فبراير ، مجنونة.

صاحت، زافرة نفساً حارقا فى وجهها

فتحت نصف عين ، كان وجه أمها منتفخا كجسدها البدين الذى يهتز كلما تفوهت بكلمات نابية.

طوحت فردتى الحذاء بعيداً ، بللت ساقيها، دغدغتها اللمسة الطفولية لوجه الماء، مالت برأسها حيث السماء اللامنتهية، رأت الغيم متجمعاً فى قلب السحب والنوارس الداكنة تحوم فى حلقات دائرية .

قطرات مبللة تسقط على جبينها، أخرجت لسانها لتلعق حبات الماء الباردة.

دَعَت المطر إلى مصاحبتها. رفعهما الموج، قذفهما، غاصا فى قلب الزرقة منتشيين، ليصعدا مع الموجة العالية وقد اغتسلت نشوتهما بالملح ورائحة اليود.

رأتها خالتها ذات يوم أثناء تبديل ملابسها ، أطالت النظر إلى نهديها، متنهدة:

« - الترمستان أضحتا تفاحاً أخضر ، وغداً ستطرحان رمانا »

وحين زحفت عينا الخالة لأسفل ، خبأت عشها الصغير والضحكة تنفلت من عينيها الناعستين.

البيوت الواطئة على الشاطىء متلفعة بالصمت والوحدة.

جرت حافية بملابسها الملتصقة على جسدها الفائر يتقطعها السعال على مسافات متقاربة.

هزت الأم مقياس الحرارة :

- الواحدة منا، لم تك تجرؤ على النظر من الشباك دون إذن.

فردت على جسد إبنتها بطانية اضافية ، صائحة:

- لابد ان تعرفى

استدارت نحو الباب، اطفأت النور

- سأحضر لك ليموناً

أحكَمَتْ الغطاء على صدرها متتبعة ظل أمها خلف الباب الموارب، همست:

« أعرف يا أمى ، ان حرارتى سوف ترتفع والسعال منى لن

ينقطع وانها كسابقتها نوبة بردوستزول، لكن ما رأيك يا أمي لوخلعت غطاء الرأس الذى تخفين تحته شعرك الجميل، وتلك الأقمشة الغليظة التى تحاصرين بها جسدك ونزلت البحر.

لم أرك تنزلين البحر أبداً يا أمي، صيفاً كان أو شتاء ، لونزلت مرة واحدة، مرة واحدة فقط يا أمي سوف تعشقيه، كما عشقته أنا حتى فى عز فبراير.

القاهرة ١٩٩٥

شاي بارد

قد يموت قلبها حزناً ، لكن الليل سيظل دوماً عشقها الذى لاينتهى.

فتحت الصنبور، ملأت البراد، وضعته على النار.

تسحبت بهدوء نحو الشرفة، تعشق السهر والغناء، الرقص والمطر.

مست على الليل، لم يجب.

غاب القمر خلف الأسطح العالية.

تساءلت : مابالك ياليلى الحبيب صامت وقد كنت بالأمس رفيق الصيف والشتاء والصبا.

آه، ربما أكون قدنسيت الشاى، معذرة.

صبت كوب الشاى، اختارت أجمل صينيه، وضعتها على حافة الشرفة.

جهزت له مقعداً، نادته، استحلفته بالعزيز لديه أن ينطق، لم يرد.

همست: أيكون قد أصابه الملل، شأن السنين الهاربة من عمرها، أم تراه زحف خلف الليالى الصاخبة ونسيها. دعته إلى كوب شاى ساخن مضبوط من يديها. حدق فيها ساخراً، كانت عيناه جمرات نيون متسلطة، أطلق ضحكة صفراء عالية ، اهتزت الهياكل الشاهقة المحشوة بقبور أسمنتية، انقلبت العربات متعددة الهوية، اختلط

النفير بنباح الكلاب والأصوات المبهمة.

تأملت مقعده الخالى، ليس هذا ليلها/ عشقها الذى تفوح منه رائحة البيوت العتيقة، يداعب الشرفات الضاحكة، يربت على أكتاف شوارعه فتنعس هادئة، يسهر على حذاء العيد تحت السرير، يرشف حزنها.

ظلت تحلم بعودة الليل الحبيب وتنتظر ، غنت، رجع الصدى حجراً صاركوب الشاى بارداً.

القاهرة ١٩٩٤

أكياس الحلوى

مر الرجل بين مقاعد الردهة بعد أن فرغت امرأته من ترتيب المكان ، سألها:

- أين فاطمة؟

صاحت أثناء التقاطها ورقة صغيرة على الأرض

- فيم تريدها؟

- استلمت خطاباً من المدرسة

- كفانا الله الشر، أهناك مايسىء

- لا،يريد وننى باكراً فى مكتب الناظرة،

أين ابنتك يا امرأة؟

أومأت برأسها فى اتجاه الشرفة

- تجدها عندك

التقطتها عيناه، جالسة تغمغم فى ركن الشرفة ، بينما الأسيجة الحديدية تطل عليها من علٍ

اقترب ، توقفت عن الهمهمة، اقترب أكثر

- ماذا ترددين؟

وقفت منتبهة:

- لاشىء يا أبى لاشىء

ألصقت ظهرها بأسيجة الحديد، وعيناها تروغان من ظله الجاثم على صدرها.

أعاد السؤال ، كتمت النفس.

نفد صبره، زعق:

- قلت ، ماذا ترددين؟

نغمات البيانو الصادرة من القاعة الشرقية تداعب روحها الصغيرة، تطيربها فى آفاق محلقة

حذاؤها الصغير ممتلىء بتراب الغناء وهى تقف منتظرة دورها فى النداء.

المعلمة القصيرة، المتشحة برداء الراهبة، تمسك بالعصا مفرقة بين البنات اللائى يدخلن حجرة باردة، خافتة الضوء والبنات اللائى يذهبن إلى القاعة الشرقية للغناء

كان الوقت يمر ثقيلا أيام الآحاد وهى جالسة على المعقد الخشبى المترب مثل حذائها فى تلك الحجرة الباردة حتى يعلن الناقوس عن الانصراف.

انسلت - ذات مرة - إلى القاعة الشرقية للغناء ، رأت فراشات صغيرات يرقص حول البيانو على أضواء الشموع ورجلاً يرتدى السواد ، يضع على رأسه تاجاً مزركشا وعلى صدره سلاسل فضية وذهبية تبرق حين يتحرك وفى يده أكياس ملونة.

وقفت مع الأخريات تنشد معهن مايجلب إليها أكياس الحلوى

والعيش المزوق بالسمسم.

- ما اسمك:

صاحت المعلمة والعصا تلامس جبين الصغيرة.أسعفتها ذاكرتها باسم البنت «تريزا» إبنة جارتها الأرمنية التى تلعب معها فى حوش منزلها وانساقت خلف صوت البيانو فى الجهة الشرقية للفناء.

أفاقت على صوت والدها يهزها بعنف

- انطقى

ارتعدت ، رددت متلعثمة بعض ماأنشدت. علقها فى كفة، ساحباً إياها إلى الداخل تناثرت حبات الحلوى على الأرض.

زعق فى ارجاء المنزل

هرولت الأم على صياحه تضم إبنتها.

انكمشت الصغيرة، دفست رأسها فى صدر أمها المرتعش، بينما صوت البيانو يمتزج بصوت الوالد:

- أين الحزام؟

القاهرة ١٩٩١

الغناء في أصل الشجرة

حدثتُ نجمى عن حالى وحنينى إلى هدوء البال، نفض ريشه، رفرف بجناحيه فوق البحار ، لف ودار حول المدن القريبة / البعيدة ، حلق فوق أسطح العمارات ، صعد عكس المطر والرياح ، اخترق الرعد ، عبر قوس قزح، عاد منهوك القوى، مقصوص الجناحين، دفس رأسه بين كفىَّ وصمت.

تأبطت عصاى ، حدثتها عما حدث لنجمى المسكين، وعدت وتوعدت أن تحضر بالى المفقود ماثلا أمامى فى خشوع.

خرجت - معى - تضرب الشوارع ، زاحمتها العربات، حاصرها الدخان والدبيب.

توقفت أذنى عن الدق، انتفضت العصا، صارت مكنسة طائرة، تعلقت بذيلها حتى ألقتنى فى بطن الصحراء وأضحت فى لمح البصر ذرة من الرمال الشاردة .

نسجت من حزنى خيمتى ، لاناقة - لى - ولا طائرة أو كلب خلف قافلة.

استلقيت على عتبة عينى ، حدثتها عن انكفاءة قلبى والعصا التى غادرتنى .

أذنت - لى - بالدخول ، تخطيت العتبة إلى الحد المسموح وعند

الحدقة، وقفت ونظرتُ في كرتها المسحورة

رأيت رجلاً ، ترقد الشمس فى عينيه، ينثر البذور بوسع الأرض ويغنى وشجرة وارفة، صارت حين استظل تحتها صبية يفوح المسك والطيب من ضحكتها ، انشرح صدره من فرط جمالها، تضافرت دقات قلبه، صارت ناياً حانياً بين يدى صاحبها الذى أثقله البوح الحزين ومد بساط شوقه تحت أقدام أميرته الصغيرة.

جريت ، منبسطة الفؤاد ، حيث رائحة الطيب والأغنيات ، اقتربت ، اختفت الشجرة والصبية والرجل الذى كان على الناى يغنى.

تسمرتُ مكانى ، أنعى حالى ورحيل البال، مرت - بى - عجوز ذات عينين تثقبان الدهر، متكئة على عصاها التى كان أصلهاحية ، همست :

- إنه هنا ينتظرك

ثم ولت وصوت الناى يتبعها، تلفت حولى ، لم أجد شيئا ناديتها:

- انتظرى

أدمعت عيناى، لفظتنى خارج كرتها السحرية، جلستُ على عتبتها أهذى :

« لابد وأن الجنى قدمس عقلى أو لعله السراب أو عطشى»

عاودتنى العجوز التى تثقب بعينيها الدهر، لمستْ بعصاها، التى كان أصلهاحية، صدرى ،

رددَتْ :

- إنه هنا ينتظرك

أفقتُ من إغفاءتى ، رأيت شجرة مورقة تطرح الأغنيات داخل قلبى، ورجلاً ، يألفه دمى ، يغمز - لى - بطرف العين، وشباب ونساء يصحبن أطفالهن، يضحكون، مادين أياديهم نحوى .

القاهرة ١٩٩٤

الواجب اليومي

جَمَعتْ خيوط شعرها المتباعدة فى فوضى ، لملمت أوراق التوت المتساقطة.

ضربات قلبها تتلاحق. صدرها يعلو ويهبط والعرق مخنوق تحت مسامها.

ركنت ظهرها العارى على حافة السرير وضوء السهارية الخافت يعكس على المرآة ظل اللحظة ، فتبدو الأجساد أكثر ضخامة والملامح مختلفة.

أشعل سيجارة:

- لم يعد بك نفس

اقتربت منه، وضعت راحتها على ظهره المبلل بالعرق:

- كيف - لى - أن أستحضر ما قطفته السنين؟

ألقى عقب السيجارة:

- هى حجة كغيرها

جاوزت الساعة منتصف الليل ، تذكرت انها لم تبتع لبناً منذ أيام مضت وأن جامع القمامة سيظل يطرق الباب حتى يزهق وانها ليست واثقة من ملء المنبه فى معياد ذهابها إلى العمل.

استدارت نحوه ، عيناها فى عينيه والنظرات متباعدة، استلقت على ظهرها ، أمسكت بكفيه تجذبه نحوها، تنقلت عيناها بين صدره

العارى وعنقوده الراقد بين الأعشاب.

عاودت المحاولة، ظلت عيناه ترقبها وجسده جماداً فتشت فى ذاكرتها عن بعض مناطق الإثارة والدغدغة، أيقظت محاولاتها المتكررة بعضاً من حواس نائمة ، قبض بكفه على الثمرة المقشرة، لعق حبات الرمان النافرة، انفرط عنقوده ، واستغرق فى إيقاع الشخير المنتظم.

عاودها الوخز الخفيف فى قلبها، لملمت شعرها، جففت عرقها وأنفاسها تتلاحق فى صعوبة.

تذكرت أن عليها شراء علبة مهدىء غير تلك الى نفذت . وضعت الوسادة فوق رأسها ، مستحلفة النوم أن يأتيها، ليكسر قيد زمنها الضيق ويعاود ضبابة الحلم/ العشق الذى كان.

القاهرة ١٩٩٤

الجرح المفتوح

-١-

قالت محتدة :- لايملك بيتاً أو إرثاً

- العمر .. ياأمى .. لم يزل أمامنا طويل

لوت شفتيها :- موت ياحمار

ظلت تركض - معه - خلف السنين، تزوغ من عينى المتربصين، تحتسى الحنان خلسة، ترصدها قطط الأيام السوداء و تتربص بظهرها المقوس وتنتظر.

- ٢ -

- إنه لايحمل فى قلبه سوى الأشعار وحب الآخرين.

رد المحقق ساخراً

سوف نرى

صوبت عينيها نحوه:

- سيظل حبنا/ عشقنا رغم انوفكم المتشممة

أشهر سبابتة

- انتبهى ، إنه لم يزل تحت أقدامنا.

- ٣ -

انقضت عليها الحوائط ، سدت منافذ القلب

صرخت : من يفتح مزاد الدم ، من سيكون عليه الدور فى رشق السكين.

ألم أحدثك ياحبى الحزين عن العيون المترقبة خلف الشبابيك والأبواب الموصدة والقطط المتربصة .

احتوت وجهه بين كفيها ، شملته فى نظرة آسيانة، همست: مابال الانكسار فى صوتك باديا، مابال الكلام انطفأ فى عينيك.

أدار ظهره ، مخلفاً فراغاً مبهما.

ظلت الأيام جرحاً مفتوحاً لايقبل إلاقلب الحبيب التئاما ، أضحت الأحزان شراكا للعشق.

تشبثت عيناها بالأفق

خرج النفس الواهن من صدرها ، تحرك فى حيز ضيق، حفر بأظافره ممراً، ربما تحمل الرياح سنوات عشق مقبلة

القاهرة ١٩٩٢

حنين

لامست قد ماها الحافيتين الرمال، لسعتها عين الشمس المختبئه في أحضانها.

ناداها البحرقلبت ، طرح العرق النشوة مبللة على جسدها الفائر وقميصها الملتصق بحلمتيها النافرتين.

أنت من وجع في عمودها الفقرى ، انزلقت عيناها من السقف الناشع إلى الدولاب العتيق، إلى المكتبة المتربه

استقرت على المرآة ، فاتسعت رقعة الشيب في مقدمة رأسها وزادت الخطوط المتعرجة أسفل العينين .

جرفها الحنين إلى اللون الأزرق ، ركضت عكس الريح ، بسط البحريده سفينة، نسجت من شعرها شراعاً ، فتحا الخيمة الزرقاء البعيدة، سكنا البلاد المسحورة ولعبا بالكور البللورية .

تململت في جلستها متأوهة ، تذكرت ميعاد الحبة التي تبتلعها قبل النوم .

دقات تزيد الساعة من سطوة الليل، تنذرها كعادتها بالاكتئاب الجميل خلف أسوار روتينيه.

تحاملت على ظهر الكرسي حتى وصلت للسرير ، ضغطت على زرخلفه، احتضنت الوسادة واستحلفت البحر أن يأتيها ويمحو تراب السنين.

القاهرة ١٩٩٢

خلف الأبواب

آه ..... لونطقت الحوائط

شردت وعيناها تتراوحان بين الباب الموصد والحائط . سوف يقول لها: « إن قريبة زوجة أخيه قد أبلغته أن الحاجة بعافية وإنه مر على صاحبه بعدها فوجده في مأزق و ......»

خيوط دخان رفيعة تتصاعد من صحن الأرز. الساعات تمر ثقيلة، كعيون صقر متربصة

قالت الحاجة: مدى ايدك، الأكل حايبرد

ردت خافضة عينيها: واجب انتظره، اتفضلوا بالهنا والشفا

تصعبت اخته الكبرى وهى تشق الرغيف نصفين

- تلاقيه هايص ولا على باله ، قال مآمنا للرجال ... قاطعتها الحاجة بنظرة صارمة:

- الطير يلف ويرجع لعشه .

انصرفت على وعد بزيارة قريبة،

أدارت المفتاح،رنت الجرس ، دقت بيديها

فتح - مرتديا لباسه الداخلى - المزلاج، كان العرق يتصبب بغزارة على وجهه وعيناه غير مستقرتان،

لعب الفأر فى عبها ، مرقت إلى حجرة النوم صائحة:

- الكل بيسأل عليك عند الحاجة

وقعت عيناها على حذاء أسفل السرير، رمادى اللون ، ذى كعب رفيع ، دارت عيناها فى أرجاء الحجرة ، اتجهت إلى الطرقه، سارخلفها محاولاً إدخال يده فى كم القميص. لاصقها، وضع راحته على كتفها

- تحبى نخرج

تملصت منه ، اشتمت رائحة غير مألوفة صادرة من المطبخ ، دفعت الباب، انحشرت بينه والحائط ، سمراء ذات وجه طفولى وقدمين حافيتين.

اندفعت نحو الباب ، جذبها بقوة ، وفى طرفة عين هرعت المختبئه خارج المنزل ، حذاؤها تحت إبطها.

حين حدس الإصرار فى عينى إمراته المصوبتين نحوه ، زعق:

- يعنى هو حصل إيه ، ناقصك حاجة ، آكله ، شاربه نايمه، مابترديش ليه؟

غامت الدينا، تقطعت خيوط الدخان المتصاعد من صحن الأرز.

قامت متنهدة فى أسى، نظرت إلى المرآة التى علا حوافها الصدأ. تحسست الخيوط البيضاء على جانبى شعرها.

ذهبت إلى الحمام ، لملمت كل الغسيل ، دخلت المطبخ، جمعت الصحون والأكواب ، دعكت - بعنف- الحلل والطاسات حتى كادت تنثقب.

- هو ابنه ولا ابننا، ارميه له

صاحت والشرر يتطاير من عينيها

- يأمى ، الدنيا ليل ، نبات هنا والصباح رباح.

نفرت عروقها:

- لاصباح ولا رباح. قلت مش ها يبات يعنى مش هايبات.

كان جالساً على حقيبة ملابسه. مسنداً رأسه الصغير على الحائط، يقاوم النعاس.

دفعته أمامها : قوم

تلاشت خيوط الدخان من صحن الأرز

- محدّش طلب منها تفوت البيت وتهج

صاح وسط اللمة المنصوبة فى حجرة المعيشة، مات الكلام فى قلبها.

توسط أهل الخير والحاجة والأقارب على بقائها والولد معه تحت سقف واحد . متعللين بالسترو الليل وما يحدث خلف الأبواب

تركت صحن الأرز جثة على المنضدة ، ارتمت على فراشها البارد، أحست بدبة قدمه، نفذ الضوء الأصفر فى عينيها. انطفأ قلبها.

جلس على حافة السرير، يفك رباط حذائه.

شرع فى الحكى:

- قريب جماعة أخويا ، بلغنى إن الحاجة بعافية حبتين و ...

فرت خارج الحجرة وصوته لم يزل

– فت على صاحبى ، لقيته فى زنقة و ...

عقارب الساعة الدائرة ، تحاصرها ، جزت على أسنانها وعيناها تتراوحان بين الباب الموصد والحائط والوقت الفاصل بينهما المتحفز للانقضاض.

القاهرة ١٩٩٣

الوخــــــــــز

أتاها الخبر / كذبته.

أسرعت ، احتجزتها الآلة الحديدية ، دفعت الورقة الصغيرة داخلها، دارت الآلة ودارت معها متتبعة صفارة المترو القريبة

« الشوارع تتسع وتضيق وانت وأنا نتوسط الناس، نهتف، تتوهج قلوبنا الصغيرة/ الجرينة، تتشابك أيدينا على الأسوار الفاصلة بيننا ، نحلم بغدٍ أفضل».

قذفتها عربة المترو حيث منزله الجديد الذى طالما أمسك قلما ورسم طريق الوصول إليه.

- انت ساكن عند القمر؟

صاحت ، بعد أن ملت شرحه وانتفخت غيظاً.

ضحكت عيناه الحانيتان، انتقلت الطمأنينه إلى نفسها.

ربت على كتفها:

- القمر وصلوا له من زمان.

وعند المفترق ، وقفا، هو سيتجه جنوباً وسوف تستدير - هى - لترحل إلى أقصى الشمال.

هاهو كشك السجائر الذى يتباع منه علبته المفضلة وممر الأشجار ذات الجذور العتيقة والفروع الممتدة المتشابكة والمبانى الواطئة المتشابهة التى تتوسطها الحدائق كما هو مذكور على الورق

- الباب مفتوح لك فى أى وقت

«آه... يا عزيزى ، دائما أصل متأخرة وأترك كالعادة كوب الشاى بارداً ودوماً الوخز الخفيف فى قلبى لاينقطع».

اقتربت من المنزل ، طالعها وجهه الأليف ، مدت يدها تتلمسه، سقطت فى الفراغ.

طرقت الباب ... مامن مجيب

طرقته بشده... جاءها الصدى موتاً .

القاهرة ١٩٩٥

الفرح المر

دق الرجل بسن قلمه على صاج المكتب.

- قلت لك لابد من إجراءات بيانية وحسابية قبل التوقيع على استمارة الصرف .

رد بصوت خفيض

- يا سيدى اعمل معروف ، المسائل لم تعد محتملة . مد سبابته حتى طالت عينه

- هذه إجراءات لابد منها ، ألاتفهم؟؟

الديون المتراكمة تطل برأسها بين الحروف الدائرة داخل ماكينات الطباعة ، تدلت رأسه حتى طرف الأذن، همس:

- أعلم انه عملك، لكن، ألا يمكن أن تصرف لى جزءاً من المبلغ ولتكن النواة التى تسند الزير .

دفس الرجل المشيب ذو النظارة العتيقة رأسه بين أوراق المكتب، أمسك مسطرة ، ثبتها تحت السطور، مردداً:

- لاحول ولاقوة إلا بالله ، الصبر من عندك يارب.

حمل ظله الثقيل خارج المؤسسة، منذ رأت عينه الشمس وهو يمد اللحاف ويمده وأبداً لم يكن على قد قدميه تكوم قلمه/ ألمه فى ركن القلب، لم تعد الحروف وحدها تكفيه غطاء للسكينه، صارت كالفرح

المر.

أدار ظهره للزحام، يتبعه أساه الذى احتل صدره منذ زمان بعيد

أطلق نظرة شاردة على كتل اللحم اللاهثة فى الطريق والدخان والسحب المتجمعة على غيم جديد.

تمنى أن يسقط المطر بشدة

القاهرة ١٩٩٤

إيقاع وحيد

تنتشر النغمات.

أرقص، أدور وتدور - بى - الأرض، تقذ فنى الرغبة المجنونة إلى البلاد البعيدة/ القريبة ويفور قلبى، تذوب جبال الجليد ، ترتفع الشهقات ..

تهدأ ....

أترنح ألماًولذة ، تدثرنى رموشى المبتلة ، تصعد قدماى الحافيتين إلى اللامنتهى ، تنفر حلمتاى.

يدور القلم فى خطوط دائرية مفرغة، أتكىء على إيقاع وحيد، تنكسر الحروف داخل الحزن المرشوش على الأوراق.

ترصدنى عيون الخوف، أختبىء تحت عمرى المسروق منى تستوقفنى دمعة اللقاء/ الفراق، أتعلق بغدٍ غير مألوف.

تتصاعد إيقاعات قلبى ، أنزل بساقىَّ، تشقنى الغربة نصفين.

تتوقف النغمات.

أموت وأحيا، تبحر الذكرى سفينه فى دمى، ترسو على عيون البراءة والصبا، تطرطش المياه حولنا ، نتسلق الشجر، نقلد الطيور، نلعق حبات المطر.

بينك وبينى غجرية السنين ، تتبخر فى دخان الرحيل ومابين الخوف والرغبة، تتسلل النغمات من جديد تنتشر ، يتصاعد الإيقاع المجنون على رمال صدرك المتحركة .

القاهرة ١٩٩٤

فتـــات

وقف بعيداً ، تحت المذياع الخشبى المخرفش، نظر بطرف عينيه على مقعدها الفارغ إلا من روحها المطفأة.

نحيل ، يأكل القشف أطرافه ووجهه المسحوب رغماعنه حتى مريلته المتسخة على بطنه.

الليلة شحُ والزبائن قليلة ، هكذا جاء زفيره متأسيا من القلب.

تحرك ، كمن انتفض عن ظله نحو منضدة خلت،ضغط بكفه المعروقة على خرقة بالية، ململما بقايا عجوز رحل لتوه عن المائدة.

اقترب منها، توقفت عن التقليب، رفعت وجهها اقتحمتها تلك النظرة فى قلب غربتها وعيون أخيها الراحلة فى اللامكان ووجه أمها الذى هده الانتظار فى ليالى الشتاء الباردة.

تحاورت أنفاسهما الصامتة ، ضغطت على فكيها معاودة التقليب فى صحنها البارد.

أدارت ظهرها للخرفشة والسعال المتقطع.

عبرت الشارع المبلل بمطر الأمس، وتحت ضوء النيون الباهت بدا ظله المتحرك بين الموائد وفتات السنين.

القاهرة ١٩٩٦

النار

فى خجل من نفسى المرتحلة عنى ، أمسكت القلم.

وبعد .... قلتها وشردت فى اللون الأصفر للحوائط والأقساط المتراكمة.

تدور ذبابة حول دورق المياه البلاستيكى الرخيص ، أنظر إلى الكتب المتراصة فوق المكتب، بعضها قرأته، والبعض لم يزل ، لاأتذكر فى هذه اللحظة شيئا قرأته ولا أعتقد أن بقيتهم تصلح للبيع.

أردد كلمات ، أعتقد أن فى اللغة العربية ماهو أفضل منها ، يفيدنى فى الاقتراض من أخت ثرية ، ربما يبطل مفعولها السحرى المتنافر منذ زمن بعيد مع حياتى المقابلة لها والمتضاربة معها حتى الجذور.

أدرت مفتاح المذياع وبعد جهد أتتنى محطة بعيدة، قربته من أذنى لأحصى عدد القتلى والجرحى فى الجنوب اللبنانى وتحفزت للقاء اللص الذى سرق نظارتى الطبية من بين المئات فى ذلك الأتوبيس اللعين لأكيله ضرباً، حتى أدميه.

وبعد ... قلتها مرة أخرى ، أأصابتنى علة فى فعل الكتابة، مثل تلك العلة التى أصابت أبى فى سن السبعين وأخذ صوت أمى يعلو بعدها وهو الذى لم يكن يتعدى الهمس فى عمر فتوته.

هممت بالخروج ، أحتاج طبيباً بلاشك وعملاً إضافياً.

وعندما وصولى إلى باب بيتى المغلق بترباس صدىء طرأ على ذهنى سؤال:

هل توصل الطب إلى علاج علة الكتابة مثلما يعالج العجز الجنس أحيانا؟؟

عدلت عن النزول، ألقيت سترتى وأنا من ورائها على السرير ونشيج متقطع داخل قلبى يؤرقنى ولم يكف حتى طلع النهار على صوت المذيع الآتى من محطة بعيدة ان صواريخ « كتيوشا » تنهال على شمال العدو .

تمنيت أن تظل النار أبداً وليكن ما يكون حتى لو لم يهدأ نشيج قلبى ولم يجد الطبيب لعلتى دواء .

القاهرة ١٩٩٦

طائرة ملونة

اللون الأزرق يداعب الأمواج الصغيرة، سراويل النسوة تلتصق بمؤخرتهن، يضحك الشباب الضارب قلب الماء ، بينما صياح الأطفال يتناغم مع قفزاتهم على الشاطىء.

أسراب الطيور المهاجرة تلامس الأفق، والطائرات الملونة تعلو وتعلو فوق البحر،

سألها أخوها الأكبر عن رأيها فى عريسها المنتظر ، أشاحت بوجهها صوب النافذة المفتوحة.

رجتها أمها:

- وافقى الله يهديكى، الناس أكلت وجهى ماذا أقول لهم؟؟

ألقت عينيها على الممر بين حجرة النوم والصالون

- قولى ، اننى أحب الترحال واحتساء البيرة والسهر فى ليالى الصيف الساخنة.

صاحت أمها والشرر يطق من عينيها:

- سوف تعنسين عما قريب ، قولى إن شاء الله.

وأردف أخوها:

- وافقى على الخطوبة على الأقل ... ربما ...

اختار شمسية نائية ، استلقى على الشازلون . ربت بكفه على فخذها:

- جسدك مملكتي وحدي.

كان يرتدي حلة كاملة، رباط عنقها يكاد يخنق أنفاسه. حين طال صمتها، استدار برأسه في مواجهتها، الشعيرات البيضاء أعلى جبينه وعلى جانبي وجهه تبرق تحت أشعه الشمس.

اقترب، لاح وجهها منبعجاً على نظارته السوداء .

صاح : - أريد تقريراً مفصلاً عنك كل أسبوع.

أغمضت عينيها على طبل ورقص لفتيات وفتيان يمرحون.

دنى فمه من أذنها هامساً:

- أنا أحبك ويهمني أمرك .

أخرجت أحلامها الصغيرة من ركن ذاكرتها، كان الصحاب وأولاد الجيران يفترسون أعواد الخوص والورق الملون والخيوط في أحواش منازلهم ويتبارون من منهم الأجمل والأسرع في صنع الطائرات وينشغل اخوتهم الصغار بتضفير أذيالها فرحين .

وعلى الرمال، كانت تجري حافية ، ممسكة بطرف الخيط

تسابق طائرة جارها وإبن عمها ، تقع وتقوم والبحر يتقاسم ضحكاتها وفرحتها بطائرتها الملونة.

حين حاصرتها العيون، أذعنت لإلحاح أمها نصحها الأهل بالتحشم ، فارتدت الإيشارب والبلوزة ذات الأكمام الطويلة وذيل جيبتها يكنس تراب الشارع.

أفاقت من شرودها على صوته المرتفع:

- لماذا لاتردين؟؟

حاولت القيام، زنقتها الجيبة الطويلة داخل جسدها، كادت تتعثر، أمسكت بعامود الشمسية صائحة فى وجهه:

- ألم يقل لك أحد ، إننى أحب الترحال واحتساء البيرة والسهر فى ليالى الصيف الساخنة

وجمت عينيه وأصابة الخرس.

أدارت له ظهرها، خلعت الإيشارب مطلقة شعرها أشرعة للسفن ، فتحت الأزرار العلوية لبلوزتها، تنفست بعمق، معبئة فى صدورها أكبر قدر من هواء البحر.

جرت حافية على الرمال وطائرة ملونه تسابق ظلها.

القاهرة ١٩٩٦